ـ 6 ـ

صدام الأصوليات

هل كان كتاب صمويل هنتنغتون الرائج «صدام الحضارات» يشجع ما أمل بمنعه؟[1] التقط هنتنغتون جملة «صدام الحضارات» من برنارد لويس، الذي أصدر أيضا تحذيرا فيما يتعلق بالتعامل مع «جذور الغضب الإسلامي»، الذي وجده في الأحداث الملتهبة التي أدت إلى مقتل الحجاج في مكة، وتفجير السفارة الأمريكية في باكستان، والفتوى التي صدرت بحق سلمان رشدي بعد نشر كتابه «آيات شيطانية». وحسبما قال لويس:

> هذا ليس سوى صدام حضارات ـ ردة الفعل اللاعقلانية ربما لكن التاريخية بالتأكيد للعداء القديم لميراثنا اليهودي ـ المسيحي، وحاضرنا العلماني، والتوسع العالمي لكليهما. من المهم بشكل حاسم ألا نستفز من جانبنا إلى ردة فعل تاريخية أيضا ولكن لاعقلانية على ذاك العداء[2].

أراد هنتنغتون من عنوانه إعادة توكيد احتمال ظهور هذه التطورات المحفوفة بالخطر في المستقبل، ومن ثم رغب في تحذير الأمم الغربية من مغبة الانخراط فيها. وبدلا من ذلك، عُد كتابه وصفا واقعيا لوجهة محتومة

يتعذر اجتنابها تتخذها الحضارات العالمية. وبدا أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 قد أثبتت صدق تنبؤات هنتنغتون. وأصبح لويس نفسه على ما يبدو مرشدا روحيا للمحافظين الجدد في واشنطن، الذين تمثل هدفهم في تحويل العراق إلى أمة أخرى تتبع النموذج التركي[3]. مع بروز الإرهاب الدولي المدفوع ببواعث دينية، بدا الفهم الساذج لـ«نظرية الصدام» مخططا هيكليا سهلا يمكن أن يؤسس عليه الزعماء السياسيون استراتيجياتهم التصادمية. لكن أولئك الذين تحملوا عناء قراءة عمل هنتنغتون سرعان ما سيعرفون أن ترتيبه لحضارات العالم ـ خطوط التصدع واتجاهات العداء المحتمل بينها ـ مفرط في العمومية والسطحية إلى حد يمنعه من تقديم الخطة البليغة والمفيدة التي زعم تقديمها.

في الحقيقة، إذا نظرنا بعناية ودقة إلى حضارات الأرض، نكتشف أنها ليست بالضرورة ملتزمة علاقة «الصدام»، بل تتمتع بما يكفي من المرونة للسماح بتشكيلة واسعة ومتنوعة من علاقات الانفتاح والاتصال والتبادل. فالعوامل السياسية والاقتصادية والتقانية والثقافية والدينية للعولمة تشير بدرجات متفاوتة إلى أن هناك قدرا كبيرا من العلاقات التبادلية والتعاونية. والعلماء والمهندسون ورجال الأعمال يتنقلون بحرية بين الثقافات والحضارات. وبعض المراقبين يتحدثون عن «إنسانوية ثقافية» تكون رابطة قوية بين الشعوب التي تتبنى معتقدات مختلفة ووجهات نظر متباينة للعالم[4]. المثال المعبر عن هذه الإنسانوية التي تسمو على الحدود تجسده حياة المهاتما غاندي: كان هندوسيا مؤمنا بديانته، لكن منظوره يشمل العناصر الأساسية للمسيحية، وبذل ما بوسعه ليكون صديقا للمسلمين. أما أساليبه اللاعنفية في مقاربة الصراعات السياسية فقد

اشتهرت على نطاق واسع واسترشد بهديها الناس من أكثر الحضارات تنوعا وتباينا في نهاية المطاف. ولا ريب في أن كفاح جنوب إفريقية ضد النظام العنصري يدين بالفضل إلى غاندي، كحال حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة.

يبدو أن شعار «الصدام» الذي رفعه لويس وهنتنغتون ينطبق على العالم الإسلامي. لكن المقاربة هنا أيضا مغالية في العمومية بحيث لا تفيد كثيرا. علينا ألا ننسى مثلا أن الإمبراطورية العثمانية ظلت حتى سقوطها عام 1919 أكثر تسامحا مع الأقليات الدينية مقارنة بالممالك المسيحية في عصرها. وحتى اليوم، إذا نظرنا إلى الظروف السائدة في ماليزيا أو إندونيسيا أو إيران أو المغرب، لا نستطيع إلا أن نميز تعددية هائلة ضمن مجتمعاتها الإسلامية المهيمنة. وفي الحقيقة، من المنطقي والأكثر معقولية فهم حضارات العالم بوصفها متمايزة، لكنها في الوقت ذاته تظهر شبكات متداخلة إلى حد بعيد من المعاني الدلالية التي تتفوق فيها العوامل المشتركة الجامعة على عوامل التصادم والمجابهة (سوف أتناول هذه النقطة بمزيد من الإسهاب في نهاية هذا الفصل). السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف ضاع التحذير المتضمن في جملة «صدام الحضارات» وتحول إلى دعوة إلى المجابهة؟ أحد الأجوبة يأتي من كتاب طارق علي «صدام الأصوليات» (2002)، الذي ألفه ليكون تصحيحا مقصودا ومستفزا لجملة ومفهوم لويس ـ هنتنغتون[5]. حجة طارق علي الأساسية ترتكز على أن الحضارات والأنظمة الدينية تصبح «نزاعة إلى الصدام» كلما «اختطفتها» الأصوليات. ورؤيته الخاصة عن أخطار الأصولية تنبثق من تجربة لا يريد لأحد غيره أن يعانيها.

فقد ولد عام 1943 لأسرة إقطاعية تسكن لاهور ـ في الهند آنذاك، وباكستان حاليا. عند مولده كانت هذه المدينة الشهيرة خاضعة للحكم الاستعماري البريطاني، ويتألف سكانها من المسلمين والسيخ والهندوس. صحيح أن عائلته مسلمة لكنها لم تكن ملتزمة الدين التزاما حرفيا متزمتا، أي مسلمة بالاسم فقط. وفي الحقيقة، كانت تعتقد أن الملالي رجال حمقى ومثيرون للاشمئزاز ليس لهم مكان في مجتمعها ـ ولا أهمية سياسية بالتأكيد. لكن الروابط التصالحية بين الثقافات المتعددة تفككت في لاهور وتفجرت على شكل صدامات مروعة تعجز الكلمات عن وصف فظاعتها في عام 1947، حين انقسمت الهند وباكستان إلى دولتين منفصلتين. قتل ملايين المسلمين أو أجبروا على الفرار إلى دولة باكستان الجديدة، في حين ذبح الملايين من الهندوس والسيخ أو أجبروا على الابتعاد عن الأراضي التي تضمها باكستان. أما والد طارق فقد نأى بنفسه باشمئزاز عن هذا الاضطراب المدفوع بالباعث الديني وتحول إلى شيوعي متزمت؛ وتبع الابن أباه في هذا التوجه العلماني، بل الإلحادي.

لكن الحادي عشر من سبتمبر غير منظوره إلى الهويات الدينية. وشعر طارق علي، الذي يعيش الآن في لندن بعد أن درس في اكسفورد ـ ويؤمن بمذهب اللاأدرية * وذو جذور إسلامية ـ أنه مضطر ليدرس بشكل متعمق ما جرى للمسلمين وما غير نظرتهم إلى العالم بهذه الطرق الدراماتيكية. كيف يمكننا فهم الشعور الحماسي المناهض للاستعمار في الشرق الأوسط؟ لماذا تعتقد كل من الهند وباكستان أنهما بحاجة إلى القنابل الذرية لدرء خطر الأخرى.

* مذهب يزعم استحالة معرفة شيء عن الله (طبيعته ووجوده). (م)

يظهر كتاب طارق علي وجود قصة طويلة خلف كارثة الحادي عشر من سبتمبر. فإذا أردنا العثور على سبيل إلى مستقبل دون هجمات عنيفة ودموية، يجب أن ندرس ونفهم العمليات الانتحارية. وحسبما قال:

علينا أن نفهم اليأس، لكن دون أن ننسى التمجيد المهلك الذي يدفع الناس إلى التضحية بحياتهم. وإذا بقي السياسيون الغربيون على جهلهم بالأسباب وتشبثوا بمسارهم السابق، سوف تتكرر مثل هذه الهجمات. إن للشجاعة الأخلاقية بعض القيمة العلاجية، لكنها عبثية وعديمة الفائدة كاستراتيجية سياسية. وليس بأفضل منها شن الحروب الثأرية المفضوحة في حمأة اللحظة. ولن تساعد محاربة الاستبداد والقمع بالوسائل الاستبدادية والقمعية.. قضية العدالة، أو تجلب ديمقراطية هادفة وذات مغزى. بل تفاقم دورة العنف(6).

كتب علي هذه الكلمات عام 2002. ومنذ ذلك الحين، أثبتت «الحرب على الإرهاب»، والحرب الثانية على العراق، وبناء الجدار العنصري بين إسرائيل والفلسطينيين أيضا، صدق تحذيره المرعب. إن دورة العنف أصبحت أكثر ضراوة من ذي قبل. وعدم الرغبة، أو القدرة على فهم جذور الأسباب يكشف عن نزعة أصولية متنامية. ولذلك فإن ما نراه هو صدام أصوليات.

يصر طارق علي على أن الأصولية الإسلامية لا يمكن فهمها بصورة صحيحة دون تمييز تمظهراتها المقابلة في أوروبا. إذ توفر إمبريالية الولايات المتحدة برأيه السياق القمعي الذي يحاول الأصوليون المسلمون محاربته. ويرى «العولمة» بوصفها تعبيرا يموه الهيمنة العالمية للولايات المتحدة. وفي

سبيل إثبات هذه النقطة، يستشهد بتوماس فريدمان، الصحفي الشهير في نيويورك تايمز، الذي كتب يقول عام 1999:

> من أجل نجاح العولمة، يجب على أمريكا ألا تخشى العمل كقوة عظمى جبارة كما هي في الحقيقة. واليد الخفية للسوق لن تنجح أبدا دون قبضة خفية. إذ لا يمكن لمكدونالد أن يزدهر دون مكدونيل ـ دوغلاس، الشركة المصممة لطائرات «اف 15»، والقبضة الخفية التي تحفظ العالم آمنا لتقانة وادي السيليكون تسمى جيش الولايات المتحدة، والقوات الجوية، والبحرية، وفيالق المارينز(7).

برأي طارق علي، يبدو «صدام الحضارات» مجرد مواجهة بين الهيمنة المتغطرسة للولايات المتحدة من جهة، والهجمات الانتحارية العديدة المموهة بغطاء الدين.

تباريح الحداثة

«الأصولية» تعبير يجب استعماله بحذر. فعلى الرغم من أن له استخدامات وصفية مشروعة، إلا أنه أصبح تعبيرا تشهيريا كثيرا ما يستعمل لوسم المعارضين بأنهم أعداء متزمتون ومتعصبون ولا عقلانيون. لا توجد طريقة لوصف «جوهر الأصولية» بشكل يرضي الجميع، لكن يمكن الحديث عن أنماط متكررة من الاعتقاد والسلوك. كيف، وتحت أي ظروف، انطلقت الأصولية؟ أعرض كبداية ملاحظة بسيطة: بوصفنا بشرا نحتاج جميعا إلى أصول جوهرية. ونحتاج إلى مكان وزمان لحيازتها وتخصيصها بطريقة واعية. لكن ما هي «الأصول الجوهرية»؟ لنفكر

على الأقل بما يلي: الحب والعطف والرعاية الدائمة التي توفرها الأسرة والمنزل، والعلاقات الموثوقة والثابتة في المجتمعات المحلية والجماعات الدينية، وشبكات النظام القانوني والعادات والقيم والتقاليد الثقافية التي يعول عليها. هذه هي منظومات المعنى، أو حسب تعبير جورج ليكوف «الأطر» التي تزود البشر بالوسائل اللازمة لاكتشاف قواهم وإيجاد دور لهم في الحياة[8]. ولذلك، تتكشف الحياة الإنسانية بواسطة حيازة وتحويل ميراث الماضي. كل واحد منا أكثر من مجرد نسخة بسيطة عن أجدادنا، مع أننا نبقى مدينين لهم بطرائق أكثر مما نعرف أو نرغب في الاعتراف بها. حيويتنا وحيوية ثقافاتنا وحضاراتنا تعتمدان على قدرتنا على إعادة بناء منظومات المعنى التقليدية و«إعادة تأطير» الأطر الموروثة في الوقت ذاته الذي نستجيب فيه بنشاط وحيوية لتحديات الغد. ومن ثم، نحن نعيش في حالة توتر بين الطاقات التي تربطنا بماضينا والطاقات التي تدعونا وتجذب اهتمامنا إلى المستقبل. ولذلك نحن بحاجة إلى أصول. نحتاج إلى ثقة أصلية، أو «ثقة بدائية» كما سماها اريك اريكسون، لكي نعيش حياة هادفة وذات مغزى.

أي نوع من الظروف يقود هذه العملية المستمرة من حيازة أصولنا نحو الأصولية؟ يحدث هذا في جميع الحالات التي تنهار فيها عمليات الحيازة. فكلما انحلت وتفككت منظومات المعنى المثبّتة، سيبحث الناس عن حلول أصولية (أو يتخلون عن أي بحث عن المعنى ويتبنون أساليب حياة «متقلبة» سوف أناقشها في موضع لاحق من هذا الفصل). تتألف هذه الحلول «الأصولية» من ثلاثة مكونات أساسية: 1) إطلاقية النصوص المقدسة أو / والتقاليد التراثية؛ 2)التزمت، أي الخضوع دون مساءلة لمجموعة مطلقة من

المعتقدات التأسيسية؛ 3) الصوابية الأخلاقية، أي الخضوع التام لمجموعة مطلقة القيم الأخلاقية. هذه محاولة فعالة وقوية لإعادة تأسيس عالم هادف وذي مغزى في خضم ظروف تبدو فوضوية ومضطربة.

حين نتفحص هذه الأنماط العريضة في الأصولية، يمكننا رؤية أننا نواجه ردود أفعال أصولية في شتى أنحاء العالم، خصوصا في الأوضاع التي تشهد اضطرابا اجتماعيا منذرا بالخطر أو حروبا أهلية طويلة، مع ما يرافقها من ضغوط البؤس وانقطاع الجذور والفوضى والتهجير والتشرد. هذه هي الظروف التي تدفع الناس إلى إعادة تأطير حياتهم ووجهة نظرهم بالعالم حول بضع حقائق توفر شعورا بالأمان المطلق. ما أقترحه هنا هو منظور ثقافي ـ أنثروبولوجي ونفسي ـ اجتماعي يمكن أن يساعد في تفسير لا نمو الأصوليات المتسارع في العالم فقط، بل «ضرورتها» كأعراض للبحث المشروع عن المعنى. فهي باختصار ردود أفعال مَرَضية على ظروف الحياة المفرطة في الإرباك والتدمير بحيث يتعذر على الناس احتمالها. يبدو من الواضح إذن أن الانتشار العالمي للحداثة، ومن ضمنها الضغوط الاقتصادية الساحقة والتأثير الثقافي المهيمن، يمثل قوة تستفز ردود أفعال أصولية متزايدة.

تستقصي كارين ارمسترونغ انتشار الحداثة في كتابها المؤثر «الصراع على الله»[9]. فبرأيها، يبدأ تاريخ الحداثة عام 1492، العام الذي شهد «اكتشاف» العالم الجديد وطرد اليهود من إسبانيا. وهو تاريخ ذو وجهين. أحدهما يروي قصص الفتوحات المذهلة، والاكتشافات المؤذنة بفتح آفاق جديدة، والثورات التي أتاحت فرصا غير مسبوقة للبشرية. لكنها الحقبة

التاريخية ذاتها التي شهدت تاريخ الاستعباد والاسترقاق وجرائم الإبادة الجماعية، ومشاعر القلق العميق، والإحباطات المخيبة للآمال.

الأصولية هي ردة فعل على الجانب العنفي المظلم للحداثة. فكلما حدث تسارع في الأمور التقانية والاقتصادية مثلا، أو زادت التعقيدات في مجال السياسة والعلم، تعاظم إغراء تقليص حدة هذه الفوضى عبر اعتناق بضعة معتقدات آمنة ويتعذر دحضها. هذا التقليص الاختزالي هو السمة المميزة لكل نظام أصولي.

نحت تعبير «الأصولية» عام 1920 في الولايات المتحدة على يد القس المعمداني والصحفي كورتيس لي لوز، الذي تعهد بأن المؤمنين «سيخوضون معركة حامية الوطيس من أجل الأصول». وخلال العقد السابق ظهرت سلسلة مؤثرة من المقالات لمئة كاتب من مختلف المشارب والتوجهات الدينية، ركزت على العناصر المفتاحية في الدين المسيحي، بعنوان «الأصول: شهادة على الحقيقة»[10]. مثل هؤلاء الكتاب حركة قوية بين البروتستانت المحافظين والإنجيليين رفضت انتشار التفسيرات التاريخية ـ النقدية للكتاب المقدس. وعدت طرائق التفسير الجديدة خيانة للحقيقة المطلقة للإنجيل. في الوقت ذاته، كان هؤلاء «الأصوليون» الأوائل يردون بشكل صارم وسلبي على النزعات الليبرالية والشيوعية وغيرها من النزعات «الملحدة» التي تزايدت وانتشرت في المجتمع الأمريكي. أما تعبير «أصولية» فقد وعد بتوفير أرضية آمنة للمؤمنين بالكتاب المقدس، والمتشبثين بإيمانهم وبقوة مبادئهم الأخلاقية، والملتزمين الوقوف بصلابة في وجه نزعات الانحطاط والانحلال في العصر الحديث.

بقيت الأصولية البروتستانتية، أمام معارضة القساوسة البروتستانت من أمثال هاري ايمرسون فوسديك، الذي فضل التسامح على اليقين[11]، بعيدة عن الأضواء والساحة السياسية طوال أكثر من قرن من الزمان. ولم تمارس المناسبات التي احتفل بها الأصوليون أي تأثير محسوس على الأحزاب السياسية. لكن بعد نهوض «الأغلبية الأخلاقية» في منتصف السبعينيات بقيادة جيري فالويل، أصبحت قوة سياسية، واستطاعت تعزيز قاعدتها في العديد من الطوائف والمجتمعات والمنظمات المحلية، خصوصا داخل الحزب الجمهوري[12]. يجب أن نلاحظ أن هذه الحركة الأصولية ليست متجانسة. وفي الحقيقة، في حين قبلت الفروع التي كانت أكثر راديكالية سيناريوهات نهاية الزمان المحتومة بالقدر الإلهي، واقترنت بمشاعر وطنية شوفينية قوية (كما ناقشنا في الفصل الثاني)، فقد فضلت طوائف أخرى أن تدعو نفسها «أصولية» بالمعنى المسيحي القويم والمحافظ[13].

لذلك، لا يمكن استخدام الأصولية لوصف الطيف الواسع كله للبروتستانتية المحافظة. ويجب أن نتذكر أن الأصولية ليست تعبيرا وصفيا فقط بل يشمل في الحالة النمطية أفكارا وأحكاما تقويمية تختلف باختلاف الموقف. ومن ثم فإن ما يبدو «أصوليا» من المنظور الليبرالي ربما يعد «ليبراليا» من الطرف الآخر من الطيف[14]. علينا أيضا أن نضيف أن الأصولية لا تعني أبدا مجرد تأسيس بروتستانتية القرن العشرين. فقد حدثت عملية مشابهة في الكنيسة الكاثوليكية خلال الحقبة نفسها: والأهم في هذا السياق «القسم المناهض للحداثة» الذي تبناه البابا بيوس العاشر عام 1907[15]. ووجب على الأكليروس الكاثوليك القسم بالالتزام

الصارم بتعاليم الكنيسة الرسمية والجوانب الجوهرية والأصيلة للعقيدة، ولم يلغ القسم إلا عام 1967، وحتى آنئذ لم يضع إلغاؤه حدا لقدرات البابوية على إسكات الأصوات الخارجة على صوابية المعتقد القويم ومعاقبة أصحابها[16].

أظهرت كارين ارمسترنغ وكلاوس كاينزلر أن الحركات الأصولية بدأت في الحقبة نفسها في الأوساط الإسلامية واليهودية. فجماعة الإخوان المسلمين مثلا التي أسسها حسن البنا في مصر عام 1928 حركة أصولية بامتياز: حيث استهدفت استعادة سلطة ومرجعية الإسلام في الوقت الذي ناضلت فيه ضد القوى العلمانية والكولونيالية التي هيمنت على الشرق الأوسط. وبطريقة مشابهة، تشكلت حركة أصولية بين المتشددين اليهود احتجاجا على اللامبالاة الدينية والدوافع الصهيونية لتأسيس دولة إسرائيل. في جميع هذه الحالات، تبدو الأصولية الدينية علاجا للذين يعانون الظلم، واللامساواة الاقتصادية، والتناقضات الفكرية، والازدواجية الأخلاقية التي وجدوها صعبة الاحتمال.

المثال المعبر في هذا السياق يجسده النمو السريع للأصولية البروتستانتية والكنائس الكاريزمية الجاذبة في أمريكا الوسطى والجنوبية. فقد وجد الناس ملاذا في هذه الكنائس الصغيرة بعد أن قطعوا صلاتهم وفقدوا أصولهم نتيجة الهجرة الإجبارية من قراهم إلى أحياء الفقر في «البرية الضارية» التي تعمها الفوضى حول المدن الكبيرة. وكثيرا ما اعتقد الأوروبيون والأمريكيون الشماليون أن هذه الهجرات مجرد قضايا اقتصادية. لكن هذا النزوح وانقطاع الجذور شكلا في الواقع تجارب مدمرة أفرزت مضامين

ثقافية واجتماعية ودينية عميقة. وليس من المبالغة الحديث عن تجارب «نهاية العالم» التي واجهتها المجتمعات المحلية والطوائف الأصولية برسالة مبسطة، ارتكزت على التفسير النصي/ الحرفي للكتاب المقدس وقواعد صارمة للاعتقاد والسلوك. هنالك تطورات وطوائف مشابهة في كل مكان من العالم. فإفقار شرائح ضخمة من البشر والاضطرابات الفوضوية التي أصابت ظروفهم الحياتية وفرت الأسباب الضرورية لانتشار تشكيلة متنوعة من الأصوليات الدينية. ولا يمكن للمسيحيين المخلصين من أصحاب الضمير الحي أن يظهروا اللامبالاة تجاه هذا الإرباك والاضطراب والمعاناة.

ولا يمكن أيضا حصر الأصولية في نطاق الطوائف الدينية وحدها. فالجدل المحتدم في العالم حول مسار ومستقبل العولمة يسمه نزاع يمكن أن يعد أيضا صراعا بين «الأصوليين» و«الليبراليين»[17].

كيف تعمل الأصولية؟

يستحيل تقديم صورة شاملة جامعة للأصولية في أرجاء العالم، وليس ذلك ضروريا في سياق هذا الكتاب. لكن من أجل فهم ومغالبة «صدام الأصوليات» الذي يلقي بظله الثقيل على المشكلات السياسية في هذه الأيام، قد يكون من المفيد تعريف وتحديد أوضح استراتيجيات الأصولية للاعتقاد والعمل. أقترح أربعا منها: الاختزال، السلطة المرجعية المطلقة، الإنكار المترافق بالإسقاط، العنف العدواني.

الاختزال

يصح وصف الأصوليات بردود أفعال مَرَضية على الحداثة، ومن ثم يصبح الاختزال طريقة لتبسيط التعقيدات المرافقة للزيادة غير المسبوقة في البيانات والمعطيات من الأنواع كافة. المثال المعبر يجسده التعقيد المحيط بدراسة وتفسير الكتاب المقدس، الذي شكل معلما رئيسا لجذور الأصولية البروتستانتية والكاثوليكية. الأبحاث التاريخية ـ النقدية والمناهج الاستقصائية ذات الصلة أوجدت انطباعا لدى العديد من المسيحيين، العاديين والمرسمين، بأن الكتاب المقدس مزق إربا إربا، وألغي منه صوت الله، في حين قلصت «الكلمة» إلى إسهامات وتدوينات وتصحيحات مختلف الكتاب على مر العصور. فماذا بقي حين قلص الكتاب المقدس إلى آليات النص والنقل؟ خشي المسيحيون المحافظون من أن مرجعية وسلطة وقدسية الكتاب المقدس تعرضت للتدمير.

من المؤكد أن المشكلات التفسيرية للكتاب المقدس أصبحت بالغة التعقيد للبشر اليوم. وإلى الحد الذي يهيمن فيه النموذج العلمي، يجب على كل جيل تقديم خلفية جديدة وموسعة لقراءته. وأصبح من الصعب فعلا العثور على مقاربة صادقة فكريا، وهادفة وذات مغزى روحيا، ومقنعة أخلاقيا في الوقت ذاته. لكن ردة الفعل الأصولية على هذه المعضلة الإشكالية تمثلت في الاختزال المخل للتعقيدات التأويلية عبر التوكيد على معصومية الكتاب المقدس. وهذه طريقة يائسة لتبسيط المهمات التفسيرية: فهي تعلن أن حقيقة الكتاب المقدس «أنقذت» وأن أولئك الذين يعتنقون هذا الرأي سوف يتحررون من إسار الشكوك الفكرية وما ينجم عنها من

اضطراب روحي وتشوش أخلاقي. وعمل الأصوليون على تأطير مثل هذه الاختزالية في إطار «الإيمان الديني» النقي والبسيط؛ وهكذا يصبح الدين مسألة تتعلق بالخضوع والانصياع، حيث يضحي المؤمن عن طيب خاطر بأي أسئلة نقدية خدمة للحقيقة الربانية المقدسة.

لكن هل يوجد بديل آخر؟ من الوهم التظاهر بأن المسيحي العادي يستطيع تدبر أمر التعايش مع التعقيدات الكاملة للمبحث اللاهوتي. ويجب على جميع اللاهوتيين الأكاديميين ورعاة الكنائس ـ والناس العاديين خصوصا ـ تكثيف وإيجاز ثروة المعلومات المتوفرة والتفسيرات ذات الصلة لتصبح على مستوى أفهامهم. أصبح من المستحيل جرد جميع المعلومات المتوفرة حتى عن سفر واحد من أسفار الإنجيل ـ الرومان مثلا ـ فضلا على استيعاب التعقيدات المعروضة في «السوق» اللاهوتي ضمن منظومة متكاملة واحدة. فإذا صدق ذلك على دراسات ولاهوت الكتاب المقدس، سيكون أكثر صدقا على تفاعل وتداخل تلك المجالات البحثية المرتبطة بالفروع المعرفية الأكاديمية والبيانات والمعطيات الثقافية والسياسية الأخرى. يدرك من يتمتع بالفطنة والتفكير المتعمق أن على كل منا اختيار البيانات والمعطيات ذات الصلة بإطار المعنى الديني الذي يتبناه. وعلى جميع اللاهوتيين وزعماء الكنائس والناس العاديين اختزال وتقليص الحلول ووجهات النظر المعقدة من أجل الاستفادة منها. وإذا لم نتمكن من التبسيط بهذه الطريقة، لن نتمكن من الاتصال أبدا. لذلك، فإن من الطبيعي للأنظمة الدينية الفرعية، مثل طوائف أو كنائس المناطق، الاتصال على أساس الشبكات التفسيرية، والطقوس المعتادة، وأطر المعنى التي اتفقنا على فهمها بطرق متشابهة.

الشيء ذاته ينطبق على العاملين في مجال السياسة أو غيرها من الأنشطة الإنسانية. ففي حين أنهم ملزمون بتفصيل أكبر قدر ممكن من البيانات والمعطيات ذات الصلة، إلا أنهم بحاجة أيضا إلى سيناريوهات (تصميمات تأويلية) لتنظيمها بحيث يستطيعون استمداد قرارات محددة منها.

من الواضح إذن أن مجتمعاتنا الحديثة تشتغل، إلى حد ما، على الاختزال والتبسيط. لكن ما ليس واضحا هو: هل تعرف الطوائف وبنياتها الفرعية وصناع القرار فيها حقيقة أنها لا تعمل على «الحقيقة» بل على سيناريوهات تمهيدية ابتدائية؟[18] وإلى المدى الذي يجب علينا معرفة العالم كي نعيش فيه، فإن المطلب المهم هو وعي مستمر بالحاجة إلى إعادة كتابة / وإعادة بناء السيناريوهات من أجل التناغم والتكيف مع المعلومات المتغيرة بسرعة. لقد أصبح هذا التقويم المتواصل مكونا حيويا ومهما من مكونات المجتمعات الديمقراطية الحديثة. فإذا فشلت في البقاء في حالة من اليقظة والانتباه والاحتراس تجاه التعقيدات القائمة، فسوف تسقط ضحية للأفراد والجماعات الصغيرة أو وسائل الإعلام التي تزعم أداء العمل عنها بنزاهة وأمانة. وحالما تقبل الشعوب والمجتمعات فكرة أن التعامل مع التعقيدات أمر بالغ الصعوبة أو، أسوأ من ذلك، هي نتاج القوى الشريرة التي تتعمد إيقاع الفوضى والاضطراب والتشويش فيها، لا بد أن تقبل أيضا الآلية الاختزالية بوصفها الحل العملي والممكن الوحيد. أما المشاركة اليقظة والقادرة على نقد الذات في عملية التقويم المتواصلة للبيانات والمعطيات ذات الصلة فهي أمر إجباري وإلزامي على المجتمعات التي تؤدي وظائفها إذا لم تكن تريد الإذعان والاستسلام لـ «الحلول» الاختزالية.

السلطة المرجعية المطلقة

حالما يقبل المؤمنون بالآلية الاختزالية، تقع مسؤولية السيطرة على الشكوك والأخطار المحتملة على عاتق أولئك الذين يزعمون امتلاك القدرة التفسيرية. مرة أخرى نقول: إذا أخذنا المنظمات والمؤسسات الدينية كمرجعية لنا، سنجد زعماء ومرشدين روحيين، أو قساوسة في مراتب عليا يزعمون «معرفة» إرادة الله. ويرسخون منظومة تأويلية يجب أن يتحرك المؤمنون ضمن إطارها. وأولئك الذين ينتهكون حدود هذه المنظومة الاعتقادية هم «خونة القضية»؛ ولذلك فهم خطرون وربما يجب استئصالهم. من المهم أن تحتفظ مثل هذه المرجعيات الروحية المستبدة بالحق الحصري في تفسير إرادة الله، لأن الاختزال الراديكالي للبيانات والمعطيات يشمل انتقاء فكريا محفوفا بالخطر للبيانات يمكن أن يؤدي إلى طرح أسئلة متشككة وغير مستساغة من جانب الأتباع. في الفصل السابق وصفت الاختزال الراديكالي المتأصل في بناء سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية. ورواده (مثل هال ليندسي، وبات روبرتسون، وجيري فالويل، وتيم لاهاي) بحاجة إلى ادعاء السلطة المرجعية الحصرية في تفسير النصوص، وهو ادعاء بوجود دعوة ربانية يتوقعون لها ولاء مطلقا على ما يبدو.

من التقنيات المثيرة التي يستخدمونها لترويج هذه السلطة المرجعية الصارمة ـ والاستبدادية ـ استحضار صورة «الأب» وتعزيزها بالإشارات المرجعية العديدة إلى «قيم العائلة». ودور الأب هو تحمل مسؤولية الطرق والأساليب التي يتربى عليها الأطفال. وعليه أن يقود وعلى أطفاله الطاعة والخضوع. هذه البنية السلطوية.

من الواضح أن هذا النمط لا ينحصر في الأصوليين المتدينين فقط؛ بل يشمل أيضا المجال السياسي. فما إن يختزل الرئيس التعقيدات السياسية ـ فيما يتعلق بالإرهاب مثلا ـ إلى معركة ترتكز على مبدأ «إما / أو» بين الخير والشر، حتى يتعذر عليه القبول بشكل جدي بالجدل الديمقراطي الواسع النطاق حول الأساليب المحتملة لمعالجة هذه المشكلة. بل يأخذ دور الأب الذي يقول: «ثقوا بي»، ليعني ضمنا أنه أفضل من يعرف. فضلا على ذلك، قد يسوغ موقفه الأبوي عبر الإشارة إلى «الأب الأعلى» الذي استهدى قراره بشن الحرب بهديه، مثلما قال الرئيس بوش في مقابلته مع بوب ودوارد (التي أشرت إليها في معرض الحديث عن متلازمة الرابح ـ الخاسر في الفصل الثالث)(19).

لن أنكر أن الأمم والمجتمعات والمؤسسات الدينية بحاجة إلى «سلطات مرجعية»، أي أشخاص مستعدين وقادرين على قبول مسؤوليات والتزامات القيادة. ولا بد من وجود أشخاص يتمتعون بالشجاعة الكافية لقبول أدوار قيادية في مواجهة التعقيدات الكاسحة؛ لأن عليهم أن يكونوا المسؤولين عن تنظيم السيناريوهات اللازمة لإدارة القضايا المعقدة. وعليهم أيضا توفير المساحات الكافية لعمليات إعادة حيازة وتخصيص النتائج المكتشفة من أجل إجراء التعديلات المطلوبة استجابة للبيانات والمعطيات المتغيرة. ونظرا لأن من الصعب على المسؤولين في المواقع القيادية تنظيم تقويماتهم ومراجعهم، فقد أسست المجتمعات الديمقراطية سلامة أداء وظائفها على ركيزة نظام من الكوابح والضوابط والتوازنات. والزعماء السلطويون، خصوصا أولئك الذين يزعمون التمتع بالعون الإلهي، يمثلون خطرا كامنا على الديمقراطيات. ويمكنهم أن يحققوا ازدهارا أوسع ونجاحا أكبر في

الثقافات التي تعودت صور البطل الخارق، ولذلك تميل إلى منح الزعماء سمات وحقوق البطل المتفوق على مرتبة البشر.

الإنكار/ الإسقاط

لا بد للآلية الاختزالية والمرجعية السلطوية أن توجدا حالة يسودها قدر كبير من القلق والإجهاد. وفي حين أن الناس ربما يرغبون في منح زعمائهم الحق في التفكير واتخاذ القرار نيابة عنهم، إلا أنهم بحاجة إلى الاعتراف بمشاعرهم الوجدانية، ومشكلاتهم الروحية، ومعضلاتهم الأخلاقية. وهذا يصدق أكثر ما يصدق على البنى الأصولية. فكلما ازداد التأثير الذي يعزوه الأتباع والمؤمنون إلى زعمائهم، تفاقمت مشكلاتهم عند التعامل مع مشاعرهم وعواطفهم وإخفاقاتهم. وهذا يفسر التهوس بالجنسانية في الأوساط الأصولية المسيحية. فكيف يمكن للمرء أن «يولد من جديد» ومع ذلك يبقى «أسير الجسد»؟ الطريقة السهلة للخروج من المأزق هي إنكار ذنب الخطيئة في الذات وإسقاطه على الآخر ـ الأجنبي / الغريب أو العدو. فالإنكار ينتج قدرا عظيما من الغضب الكظيم غير المعترف به، الذي يجب توجيهه إلى القوى الشريرة هناك. في الفصول الأولى من هذا الكتاب تناولت قوة الإنكار وتأثيرها التقسيمي في العلاقات بالآخرين. يتضح ذلك بأجلى صورة في سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية: في تصويرها يصبح العالم الذي «لم يتخلص من ذنوبه»ملعبا للشيطان وشروره. وعند هذه النقطة تظهر الأصوليات نزعتها نحو اللجوء إلى العنف.

العنف العدواني

النتيجة المنطقية للآلية الاختزالية، والسلطة المرجعية المطلقة، والإنكار، هي الحاجة الملحة إلى شن الحرب على «قوى الظلام» التي تبدو أنها تهدد بالخطر الأمن المزعزع الذي أسسته الأنظمة الأصولية. أما ثنوية الخير/ الشر المتأصلة في منظوماتها الفكرية فلا تسمح إلا بخيارين اثنين: إما هداية «الآخرين» أو تدميرهم، كسبهم وضمهم إلى صفها أو نبذهم وإقصائهم. هذه النزعة المولعة بالحرب تتبدى بوضوح في روايات وأفلام نهاية الزمان، مثل «المتروكون» ـ وغيرها. ويمكن العثور على مثل هذا العزم العنيد في «الحرب على الإرهاب»، خصوصا في عبارة الرئيس بوش المتكررة «النصر الشامل الكامل»، وحجته المرافقة التي تؤكد أن «علينا مواجهة التهديدات قبل أن تتشكل وتكتمل»، التي تعني أن علينا التجول في أرجاء العالم بحثا عن الأعداء لقتلهم[20]. هذا البحث لا نهاية فعلية له، لأن العدوانية التي يزعم تدميرها تعيد خلق ذاتها في كل هجوم.

لا أزعم أن هذه المعالم الأربعة تروي القصة الكاملة للأصولية. لكنني أعتقد جازما أنها تساعد في فهم طبيعة الأنظمة الأصولية ـ دينية كانت أم اقتصادية أم سياسية أم جميعها معا. وحين نتذكر هذه المعالم، يمكننا أيضا فهم التغيرات في الأوضاع الدينية والسياسية. فخلال العقود الثلاثة الأخيرة اختبر العالم انتشارا غير مسبوق من المقاربات الأصولية لحاجاته ومعضلاته. ولربما يمثل ذلك الجانب الظليل من الموجة الجديدة للعولمة التي اجتاحت العالم في العقود الثلاثة الأخيرة. ويمكننا أيضا ملاحظته في الولايات المتحدة. ومع أن معظم الأمريكيين يحبون الاعتقاد بالاستمرارية المتواصلة للسياسات التي تنتهجها بلادهم، إلا أن هناك تغييرات عميقة

تمظهرت مع نهاية السبعينيات. ويصيب جيمي كارتر حين يكتب عن «نهوض الأصولية الدينية» وعن «الأصولية في الحكومة» بوصفهما ظاهرة برزت منذ أن ترك البيت الأبيض[21]. ويبدي توماس فرانك ملاحظة مشابهة حين يتحدث عن «ردة الفعل العنيفة» التي أوصلت رونالد ريغان إلى البيت الأبيض ومكنت الحزب الجمهوري من تعزيز قاعدة قوته، حتى في المناطق التي ظلت حتى ذلك الحين ديمقراطية غالبا[22]. على الصعيد الشخصي، يمكنني قول ما يلي: «أمريكا» التي عرفتها خلال السنة التي قضيتها في جامعة ييل (1965) ليست «أمريكا» التي أشاهدها اليوم.

المشكلة مع الحداثة: الذات المتقلبة

لا تمثل الأصولية ردة الفعل المرضية الوحيدة على تسارع وتعقيد وتعددية العصر الحديث. فالطريقة المرضية الأخرى للنجاة من ضغوطه هي الاستسلام لها. وصفت هذه الظاهرة بالتفصيل في كتاب روبرت جاي ليفتون «الذات المتقلبة»[23]: بروتيوس شخصية أسطورية من اليونان القديمة، وكان إله جميع الأشكال والهيئات، وعبر هذا الدور الكوني سيطر أيضا على الأمواج. لكن حين فقد قدرته أخذ يستمدها من القوى الأخرى التي تدفعه. فعندما تضرب عاصفة هائجة البحر، يمكن أن تصبح الأمواج كارثية؛ وحين يهب نسيم لطيف تهدأ الأمواج وتسكن. يستخدم ليفتون هذه الاستعارة التشبيهية حين يقول: «نحن نتحول إلى السيولة والميوعة ونصبح متعددي الجوانب والوجوه. ودون إدراك حقيقي لذلك، نطور إحساسا بالحيازة الذاتية لاضطراب وسيولة عصرنا»[24]. ويتابع القول إن التأثيرات التي أسهمت في هذه الحالة النفسانية يمكن اقتفاء

جذورها في عصر النهضة ـ أي في بدايات العصر الحديث. لكن ليفتون يلاحظ أيضا أن هذا «التقلب» قد ازداد إلحاحا خلال النصف الثاني من القرن العشرين. ويشير إلى «إرباكات واضطرابات التغيير التاريخي السريع، وثورة وسائل الإعلام، والتهديد بانقراض الجنس البشري. حيث تسارعت كلها بطريقة استثنائية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وهذا ما سبب انهيارا راديكاليا للمجتمعات ومصادر السلطات المرجعية السابقة»[25].

في حين أن الذات الأصولية تسعى لإنقاذ نفسها من هذه الفوضى عبر التشبث بالحقائق المطلقة والمصادر «المقدسة» ـ التي لا تخضع للمساءلة والتشكيك ـ فإن الذات المتقلبة تسعى للبقاء في هذا الاضطراب العام عبر التحول إلى ذات ومائعة ومطواعة. هذا النوع من تخلي الذات عن مهمة إعادة حيازة منظومات المعنى الموروثة، بسبب تحديات وتشوش العالم المعولم الحديث يبدو أنه خرج عن السيطرة. ومن ثم، تقبل الذهنية المتقلبة النماذج والنزعات والتوجهات السائدة في عصرنا وتتبع دوافعه وبواعثه ووعوده دون مساءلة جدية لها. ليس ثمة قواعد أخلاقية صارمة تتبعها، ولا فضائل شخصية أو اجتماعية تتمسك بها مهما كان الثمن.

يصعب وضع أسماء ووجوه لهذه الذهنية المتقلبة. لكن بمقدورنا الإشارة إلى الممثل والمخرج السينمائي وودي الان، الذي يبدو أنه يتلاعب بالمشكلات الأخلاقية والوجودية التي يواجهها البشر. إذ لا يوجد شيء خارج منظوره الهزلي وحتى المتشكك. وفيلمه «ماتش بوينت» (نقطة الفوز) (2005)، مثال معبر في هذا السياق: بمحض الصدفة يفلت البطل الشاب من العقاب على

جريمته، فالصدفة ـ السعيدة أو المشؤومة ـ هي المحرك الرئيس في حياة الناس. وإذا كانت الحال كذلك؛ فلا يوجد شيء يمكن التشبث به.

المثال الثاني يمكن أن نجده في الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول التي نشرت في الصحيفة الدانمركية «يولاندز بوستن» في الثلاثين من أيلول/ سبتمبر 2005. فبغض النظر عن حقيقة أن هذه الصحيفة تؤيد بعناد الحركة اليمينية بزعامة فوغ راسموسين وسياستها التي تظهر بشكل سافر رهابا مرضيا من الأجانب، فإن نشر هذه الرسوم يظهر ما يمكن تسميته «الأمية الدينية». وعلى ما يبدو، فإن الصحفيين المتورطين لم يدركوا حقيقة عدم جواز إظهار النبي في أي صورة كانت، فضلا عن تقديمه في رسم كاريكاتوري ناقد أو ساخر. وحين أعلم الأصوليون المسلمون في الدانمرك العالم بهذا «الكفر»، أطلقوا موجة غضب واحتجاج عمت أرجاء العالم الإسلامي. وهذا ما دفع الصحفيين في مختلف بلدان أوروبا، خصوصا في فرنسا، إلى إعادة نشر عدد من الرسوم ـ «تضامنا مع زملائهم الدانمركيين» ودفاعا عن الحق الديمقراطي - المزعوم في «حرية التعبير». أظهر ذلك كله قلة حساسية تجاه المعتقدات الدينية للمسلمين. وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه الصفحات (شباط/ فبراير 2006)، يكشف العديد من السياسيين والصحفيين عن سذاجة ذات متقلبة حين يعبرون عن دهشتهم من أن يسبب مثل هذا الحدث هذا الغضب العارم ويؤدي إلى ردود الفعل العنيفة في البلدان الإسلامية.

يعكس المنظور المتقلب بطريقة غريبة الرؤيوية في الجانب الأصولي. فإذا صدقت نبوءات الهلاك المحتوم فلم نهتم ونعاني؟ وإذا صدق أولئك الذين يزعمون أننا جميعا على «التيتانيك» المتجهة نحو اصطدام مهلك مع الجبال

الجليدية للحرب النووية، أو الشتاء البيئي، أو معركة ارماجيدون، أو الموت الجماعي نتيجة فيروس العوز المناعي المكتسب/ الإيدز، فلم نهتم بحالة العالم بعد خمسين سنة من الآن؟

هذا لا يعني أن الأشخاص المتقلبين سيئون بالضرورة؛ فقد يتميزون بالسخاء، إذا كان ذلك هو ما يفعله الناس؛ لكنهم مهملون إذا ظهرت توقعات أخرى. ويبدو أنهم لا يستقرون على هدف، ولا يتمتعون بالقدرة على التحمل في أوقات الشدة. إذ يسود لديهم مبدأ «اليوم خمر وغدا أمر». وعلى الرغم من حقيقة ولع صناعات الترفيه ومراكز التسوق بهذا النوع من الذهنية، إلا أنها تمثل ردة فعل مرضية، شكلا من الانهيار الفكري والعاطفي/ الوجداني. في الواقع أنا أعرض فكرة الذات المتقلبة لسببين اثنين:

1- دون الغوص في التفاصيل، أعتقد أن بمقدورنا القول بكل ثقة إن التقلب معروف لدينا تماما. وسيوافق معظم الناس بالتأكيد على أن البواعث المتعددة الجوانب والسريعة التغير في حياتنا اليومية تدفعنا إلى تطوير نوع من الهوية المرقعة التي تمكننا من استيعاب سلسلة واسعة من الطرق والاتجاهات والميول. لكن، في حين أننا على قناعة بأن الانفتاح والتعددية من الجوانب الجوهرية الجيدة في عالمنا الحديث، إلا أننا نعاني أخطارهما الداهمة. فهل تتمتع الذات المتقلبة بما يكفي من المرونة لاتخاذ الخيارات الضرورية باستمرار؟ يبدو أن ليفتون يعتقد ذلك، لكنه يعترف بأن التقلب يمكن أن يتحول أيضا إلى مجرد انعكاس للتشظي الذي يحاول مواجهته. وهو يتحدث عن «التقلب المختل الوظيفة»(26)، وعن ذات متشظية «ليست ممركزة أو غير ممركزة، بل لا ممركزة»(27).

أنا أحاول أن أتعاطف مع التقلب والأصولية، لأنهما من الحقائق الواقعية القريبة منا. وحين أقترح الإشارة إلى التعامل مع الظاهرتين بوصفهما من ردود الأفعال المرضية على الحداثة، فأنا لا أرغب في تبريرها وإنكار أخطارهما. بل أريد توكيد أن من الضروري إذا رغبنا في التعامل معهما بنجاح الاعتراف بأن أخطاء كثيرة تحدث في عالمنا الحديث. وإذا أردنا مغالبة النزعتين المتطرفتين كلتيهما علينا اللجوء إلى النقد الذاتي حين نتفحص مثالب ونواقص وشراك الحداثة. وعلينا الاهتمام بالتغييرات الضرورية لنا للتغلب على تصلب وتشدد الأصولية وميوعة وعشوائية التقلب. ما الذي يمكن فعله لإيجاد أوضاع مستقرة يمكن لأطفالنا وشبابنا العثور فيها على الاستقرار والأمان دون خسارة فضولهم؟ ما هي الطاقات المتحضرة التي نحتاج إليها للحفاظ على عالمنا «المتحضر» منظما ومرتبا؟ هل ثمة طريق يتوسط انحسار الذات الأصولية وتشظي الذات المتقلبة؟

في الحقيقة، نحن لا نبدأ من الصفر. وعلى أولئك الذين يحاولون منا تجنب الحدين المتطرفين توكيد أنهم يمثلون الأغلبية. في الولايات المتحدة، مثلما هي الحال في أوروبا وغيرها من مناطق العالم، تشارك الأغلبية الساحقة من السكان في هذا العمل الحضاري والتحضيري باستمرار عبر إيجاد وإعادة إيجاد مساحة من الثقة وأرضية آمنة تمكنهم هم والأجيال القادمة من العيش حياة هادفة وذات مغزى في خضم ـ وعلى الرغم من ـ الاضطراب والشواش والفوضى. بكلمات أخرى، علينا منع الأصوات المتطرفة من الهيمنة على النقاش والحوار.

2- السبب الثاني الذي دعاني إلى أن اقترح الحديث عن الذات المتقلبة عند التعامل مع الأصولية هو الخطر الناجم عن إدانة الأصوليين لكل ما يقع خارج مجالهم بوصفه مائعا ورجراجا وفوضويا وفاسدا وبذيئا. في الوقت ذاته، هنالك الخطر الناجم عن إدانة أصحاب الذهنية المتقلبة لكل ما يقع خارج بواعثهم المرنة للاستيعاب والتكيف بوصفه عنيدا ومتصلبا ومتزمتا. ويبدو أن أصوات الجانبين المتطرفين هي المسموعة في حين تصمت أصوات أولئك القابعين في الوسط بينهما. فالخطاب العام المتعلق بالرؤى والقيم التي ترشد وتهدي المجتمع اختطفته مكبرات الصوت التابعة للمتطرفين الأصوليين وأصحاب الذهنية المتقلبة. فهي تدخل نزعة حربية مولعة بالقتال تباعد الشقة بين الناس، وبذلك تنزع إلى الانسحاب إلى ثقافات فرعية متعارضة. أما النتيجة فهي تعرض سلامة ووحدة المجتمعات ومرونة الحضارات للوهن والضعف. والمثال المقلق هو المعركة الغريبة بين الجماعات الإسلامية، خصوصا في الشرق الأوسط، و«الغرب» التي أشعلت فتيلها الرسوم الدانمركية المسيئة للرسول. لقد اختطف المتطرفون الأجندات السياسية.

المعضلة الأصولية - مثالان اثنان

لماذا تحظى الأصولية بهذه القوة في الولايات المتحدة؟ لا يمكن أن يكون البؤس الاقتصادي هو الذي يدفع الناس في أمريكا الوسطى والجنوبية إلى الأوساط الأصولية (مع أن توماس فرانك يعتقد أن التغيرات الاقتصادية

الحادة في أجزاء من الغرب الأوسط أسهمت في نهوض المعتقدات الأصولية)[28]. ولا مشاعر الذل والعار هي التي دفعت الكثيرين من المسلمين إلى مناصرة المواقف الأصولية والجماعات المتطرفة المشابهة. لكن إذا صدقنا الإحصائيات، نجد أن قرابة ثلث السكان في الولايات المتحدة يتبعون أفكارا وممارسات أصولية. إذ تهيمن الكنائس الوطنية الكبرى المغالية في توجهاتها المحافظة وزعماؤها على محطات الإذاعة والتلفزيون في شتى أرجاء البلاد. لماذا؟ ولِمَ تغذي الانطباع بأنها في حالة حرب تدافع فيها عن نفسها بعناد في مواجهة أعداء يتمتعون بقوة ساحقة داخل وخارج الوطن؟ أحد الأسباب قد يكون العداء المستفحل في الولايات المتحدة بين المواقف الأصولية والمتقلبة.

ربما يمكننا القول إن الولايات المتحدة ليست فقط الرابح الأكبر من الحداثة بل هي الخاسر الأكبر أيضا. فعلى الرغم من مرابحها من آخر موجات العولمة، إلا أنها تواجه أيضا التعقيدات المهددة التي تستدعيها هذه الحالة المضطربة. ومن الواضح أن مزايا ومثالب الحداثة المعولمة متشابكة ومتناسجة. ومكانة أمريكا بوصفها القوة العظمى الوحيدة في العالم معروضة كاملة في روعة وتألق ووفرة المصارف، ومراكز الأبحاث، ومراكز التسوق، فضلا على الملاجئ الحصينة التي تخبئ الصواريخ النووية؛ في الوقت ذاته، فإن الجانب المظلم العنيف مرئي أيضا في بلداتها الصغيرة المتهالكة (خصوصا التي يقطنها السود) وسجونها المكتظة. الولايات المتحدة هي زعيمة الأمم الغنية المتقدمة ودولة من العالم الثالث في آن معا. وهي كبيرة ومجهولة وواسعة إلى حد يشمل أشد المجموعات غرابة والمواقف شذوذا؛ كل شيء فيها من يفاع النبل إلى

حضيض البذاءة، يبدو ممكنا ـ ومسموحا. سمها ما شئت: انغماس في الملذات، أو مادية، أو حب العنف، لكن يبدو أن الخطوط الكفافية للحرية وحدود الانفتاح قد بهتت.

لذلك، ليس من المفاجئ أن يرى الأصوليون أعداءهم متربصين عند ركن وخلف كل منعطف، ويعدوا «رسالتهم» تكمن في محاربتهم أينما وجدوهم. أما استحضارهم لما يسمى بقيم العائلة الأمريكية التقليدية فمحاولة لإعادة الأمة إلى نقائها الأصيل واستقرارها الأصلي كما يزعمون. بكلمات أخرى، يقود ثقافة الحرب التي تجتاح الولايات المتحدة حاليا أعداء ألداء من المتطرفين الأصوليين وأصحاب الذهنيات المتقلبة. والضغوط كبيرة على الطبيعة الديمقراطية للمجتمع الأمريكي. ففي حين أن الأصوليين يتبنون وجهات نظر استبدادية ـ بل حتى ثيوقراطية ـ فإن أصحاب المواقف المتقلبة لا يأبهون لذلك البتة.

في كتاب «ما الذي جرى لكنساس؟» يصف توماس فرانك بالتفصيل كيف استخدم الزعماء السياسيون مرارة واستياء الأمريكيين المفقرين في أماكن مثل كنساس لإثارة غضبهم وحنقهم على تعجرف «الليبراليين» وصلف «النخب» في «الولايات الزرقاء». واستغلوا صورة المواطن الأمريكي الحقيقي والأصيل وهو محاصر بالإباحية ومطوق بالانحلال والفساد. يستشهد فرانك بفيل كلاين: «وهكذا، نسمع من ساحل أن التعهد ليس دستوريا، ومن الساحل الآخر ضرورة إتاحة الفن الإباحي للأطفال..»(29). إن نظرة على الصناعات الترفيهية تبدو كافية لتهييج مشاعر الخوف والغضب لدى الأصوليين. فها هو فيلم « جبل بروباك» الذي يدور حول اثنين من رعاة البقر المثليين يفوز بجائزة أفضل فيلم لعام 2005. أما

جائزة أفضل ممثلة فذهبت إلى فيليستي هوفمان التي اشتهرت بدورها في فيلم «ربات بيوت يائسات» السيئ السمعة، حيث لعبت هذه المرة دور امرأة تنتهك الحدود الجندرية بين الجنسين في فيلم «عبر أمريكا». في حين ذهبت جائزة أفضل ممثل إلى سيمور هوفمان على تجسيده شخصية الكاتب المثلي ترومان كابوت في فيلم «كابوت».

يمكن رؤية هذه الإشارات الدلالية المتحدية لـ«الطبيعي والمألوف» بوصفها تعبيرات متوقعة من التعددية النمطية في انفتاح الديمقراطية الأمريكية. لكنها بدت للذين حوصروا في إسار ذهنية «إما / أو» دلالات أكيدة على بلاد تخون قيمها الجوهرية وتحتاج إلى وضعها على جادة الصواب من جديد ـ بالقوة إذا لزم الأمر. هذا هو الانقسام القائم على مبدأ «إما / أو» نفسه الذي ناقشته في موضع سابق من هذا الكتاب. وهو ينتشر داخل الولايات المتحدة وعلى المستوى الدولي أيضا: حيث يضيف ملاحظة عدوانية إلى الاستثنائية التي تضع الولايات المتحدة فوق أو ضد «بقية» العالم. ويساعد في تفسير العنف الرؤيوي المتضمن في سيناريوهات نهاية الزمان، مثل «المتروكون»، ويهيمن على أساطير البطل الخارق في متلازمة الرابح ـ الخاسر.

الحرب على الإرهاب هي التعبير السياسي المنطقي لهذه الهواجس الأصولية. والحلول الصارمة التي تزعم تقديمها هي نتاج للاختزال الراديكالي للتعقيدات والمظالم العالمية إلى مجرد انقسام بين الخير إزاء الشر، الذي ينتج بدوره ذهنية لا تسمح بتفكير جدي في البدائل. ونتيجة لذلك كله، تسود الأشكال السلطوية الاستبدادية للزعامة، ويصبح العنف الواسع النطاق أمرا محتوما يتعذر اجتنابه (هذا العنف لا يقتصر على

ساحة المعركة فقط، بل يمتد إلى معسكرات الاعتقال وغرف الاستجواب أيضا). من الواضح أن مثل هذا العنف الأصولي يستفز ويعمق ردود أفعال عنيفة. هذه الحلقة المفرغة من العنف ورد الفعل العنيف هي التي تعطي «صدام الأصوليات» حتميته الوحشية وتغلق مقدما أي احتمال للسلام. ولا شك في أن الحرب التي شنها الرئيس بوش على عراق صدام حسين نتاج واضح لهذه المعضلة الأصولية. فعلى الرغم من إعلان بوش الانتصاري في أيار/ مايو 2003، بأن مهمة الغزو قد «أنجزت» إلا أن الحرب مستمرة وتهدد بالامتداد إلى جيران العراق. وحتى إذا استطاعت الولايات المتحدة تدبر أمر إعادة جنودها إلى الوطن، فإن حالة الحرب سوف تستمر على مستويات متفاوتة من العنف والحدة. فقد دمرت كنوز لا يمكن تعويضها، واشتدت مشاعر الغضب والكره إلى حد يصعب فيه تهدئتها في المستقبل المنظور.

دعيت الحرب على العراق «عملية الحرية العراقية». وليس من المفاجئ أن العديد من العراقيين اختبروا معاناة هذا النوع من الحرية بوصفها عملية إذلال إضافية. وعلى الرغم من أن معظمهم شعروا بالارتياح لإزاحة صدام حسين، إلا أنهم لا يرتاحون كلهم لوجود الأمريكيين في بلادهم. كيف حدث واستمر ما دعاه توماس فريدمان (وهو لا يعد بالتأكيد صديقا للشعوب العربية) بـ«الصدّامية»؟ يصف فريدمان هذا الموقف بأنه«متجذر في صلب الذهنية العربية، حيث ولد نتيجة سنوات من الاستعمار والإذلال»، موقف يلح على أن تعزيز واسترجاع الكرامة العربية والقومية العربية عبر تحدي الغرب أكثر أهمية من الحرية والديمقراطية والتحديث[30]. بكلمات أخرى، يرفض

العراقيون الوعد بالحريات الأمريكية لأنه لا يعني تحررا من سنوات الإذلال والهوان.

يقودني ذلك إلى المثال الثاني الذي يبدأ مع سؤال كثيرا ما طرح بعد الحادي عشر من سبتمبر: كيف يمكن أن يكون الشبان المسلمون الذين خطفوا الطائرات لتدمير البرجين التوأمين ومبنى البنتاغون من الطلاب الناجحين والموسرين الذين ينتظرهم مستقبل واعد؟ إذ لم يأتوا من عائلات فقيرة، ولا تعرضوا لظروف يائسة ومهينة. وفي الحقيقة، امتلكوا جميع الوسائل اللازمة للنجاح حتى في العالم الغربي. لكن ربما كان ذلك هو السبب نفسه بالضبط الذي جعلهم يقررون التضحية بحياتهم في محاولتهم قتل أكبر عدد ممكن من «الأعداء». انطباعي هو أنهم وجدوا أنفسهم في معضلة حادة من الفوضى وانقطاع الجذور: «فمن ناحية، كان عليهم حيازة منظومات المعنى الموروثة»؛ ومن ناحية ثانية، وجب عليهم التعامل مع وعود وإغراءات العالم الحديث. من الممكن أنهم شعروا بتمزق وجداني بين ذواتهم الأصولية، أي القيم التقليدية لأصولهم الإسلامية، وذواتهم المتقلبة، أي الفرص في الغرب بأساليبه الحياتية الليبرالية ـ والخليعة.

أعتقد أن من المنطقي الافتراض أن هذه المعضلة الساحقة صعب كثيرا على هؤلاء استيعابها. وكلما اقتربوا من الخيارات المغوية في العالم الغربي اشتد تأثير الخيار الوحيد المتاح أمامهم بين الاستسلام لإغراءات الغرب و«خيانة» ثقافتهم الموروثة أو محاربة هذه المغريات مهما بلغ الثمن. وهكذا، كانوا بحاجة إلى أبلسة الانفتاح المتقلب للديمقراطيات الغربية، لأن ثروة الخيارات التي تعرضها هذه الديمقراطيات تبدو وكأنها خارجة عن

السيطرة. المخرج الوحيد هو الانسحاب الأصولي إلى التضحية بالنفس، التضحية بالحياة في مواجهة مغريات الوجود العذب المريح، لكن العبثي، تحت طغيان «الشيطان الأمريكي» الفتان.

على نحو مشابه، وتجاهل حقيقة أن كل سورة من سور القرآن تفتتح باسم الله الرحمن الرحيم. وهم لا يجرؤون على التأمل والتفكر بما تعنيه الرحمة التي تشكل الدافع الأصيل والجوهري في الإسلام. ولا يوفر تطرفهم الحيز الكافي لملاحظة الأخلاقية في دينهم. حتى في حالة الجهاد القصوى، يجب عدم المساس بغير المحاربين ـ خصوصا النساء والأطفال. ولا يعرف الإسلام وفقا لمصدره الأول، القرآن، شيئا مثل «الضرر العرضي أو الإضافي» (قتل المدنيين في الأعمال الحربية).

كيف نتعامل مع الأصولية؟

إذن، كيف نتغلب على الأصولية؟ هنالك العديد من الجوانب والملامح التي تخطر على البال، وملاحظاتي ستكون مجرد مساهمة صغيرة في هذه المهمة الكبيرة. على المستوى الشخصي، أود توكيد حقيقة أن المؤمنين الأصوليين يستحقون احتراما عميقا على ولائهم وإخلاصهم والتزامهم. ومن الضروري الاعتراف بالألم الذي يشعر به الكثيرون منهم حين ينظرون إلى العالم وأخطاره. وحتى عندما نميل إلى اعتبار معظم هذه الأخطار متخيلة أو موهومة أو مغالية، فإن من المهم فهم أن بعضها حقيقي وداهم. أما السؤال الجوهري الذي يطرحه بروز هذا القدر من الأصولية فهو: ما هي الأصول الجوهرية التي نحتاج إليها في خضم عالم معقد ومعولم إلى حد يثير القلق؟ ما هي «الحقائق البدهية الواضحة» التي

يحتاج الناس من جميع الثقافات والديانات إلى حيازتها في المرحلة المبكرة من القرن الحادي والعشرين؟ كيف يمكن أن نتمسك ـ ونعيد بناء ـ هذه القيم والمعايير القانونية والبيئات المستقرة التي نحتاجها لإيجاد صور شاملة وموثوقة لمستقبل يستحق أن نعيشه في وجه تسارع التقانة، وتزايد التعقيدات الفكرية والأخلاقية، وتفاقم التفاوت الاقتصادي والثقافي، وتعاظم العداوات الدينية؟ هذه الأسئلة الملحة مهمة للناس في المجتمعات المتقدمة صناعيا والمسرفة بيئيا والميسورة اقتصاديا، بقدر أهميتها لشعوب ما يسمى بالعالم الثالث. بدلا من تجاهل الأصولية بوصفها لا عقلانية وغير ذات صلة، يجب أن يستلهم جميع أصحاب النيات الحسنة منها عزمها المصمم على إجراء بحث عنيد عن تلك القيم والمعايير التي نعدها جوهرية لحياة أحيائنا السكنية، ومجتمعاتنا المحلية والديمقراطية ـ أي وطننا الدنيوي.

يقودنا هذا كله إلى المستوى الاجتماعي. لم يكن الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس الوحيد الذي يثير السؤال المتعلق بقدرة ديمقراطياتنا الغربية على توفير/ وإعادة ابتكار القيم التي توجد وفقا لها. واستجابته تمثلت في أن مرونة أنظمتنا الديمقراطية لا يمكن أخذها كقضية مسلم بها. لذلك فإن الجدل العام، كما يؤكد، بحاجة إلى تنشيط، ومن أجل الوصول إلى تلك الغاية نحن بحاجة إلى تطوير مجتمع مدني حيوي ونشيط[31]. عند معاينة الولايات المتحدة من منظور أوروبي، يبدو ذلك ضروريا جدا إذ لا توجد قوة خارجية قادرة على تحدي النظام الديمقراطي في الولايات المتحدة. ومثلما حاججت آنفا، يضيق المتطرفون من الأصوليين وأصحاب المواقف المتقلبة الحيز المتاح الذي يمكن فيه للجدل العام الداعم

للديمقراطية الأمريكية أن يجري. أي أن الأعداء الوحيدين الذي يجب أن يخشاهم الشعب الأمريكي هم أعداء الداخل.

كيف نواجه المتطرفين من الأصوليين وأصحاب المواقف المتقلبة على المستويات الدينية؟ من هم الأصوليون الذين نتفق عليهم جميعا مهما اختلفت دياناتنا وأوطاننا؟ كيف نعيد بناء الحيز المطلوب لتوطيد علاقات مستدامة بين شعوب العالم ردا على القوى التي تفرق شملها؟ ما هي الصور والرؤى، والرموز والقيم التي تمكننا من التوافق مع مواطن الضعف التي تعلّم حياتنا الفانية على الأرض؟ يحظى هذا الاهتمام بأولوية عاجلة وخاصة لأولئك المنتمين إلى طوائف ومجتمعات مسيحية. وإذا أردنا أن نكون عباد الله الصالحين، كيف نعزز وندعم هذه المهمة في مواجهة السيناريوهات الرؤيوية «للصناعات الترفيهية/ العقيدية» الأصولية، إضافة إلى التدين المرقع الذي يتعامل مع المعتقدات والشعائر والممارسات الدينية بوصفها «سلعا وبضائع» يمكنك شراؤها من مراكز التسوق؟

أخيرا، كيف يمكننا، كمواطنين في العالم، العمل على صياغة سياسات تستبدل بسيناريوهات «الصدام» المدمرة للذات مفاهيم عن حياة دائمة ومستدامة ؟ لست واثقا أن الناس في المانيا، أو أي بلد أوروبي آخر، قد وجدوا إجابة مرضية. ومعظمهم يفضلون تجاهل المشكلات الفوضوية في العالم والاهتمام بشؤونهم الخاصة. هنالك اتجاه لترسيخ ذهنية ترى أوروبا «قلعة حصينة» مصممة على إبعاد الأفارقة أو الآسيويين الذين يريدون تسلق أسوارها. من ناحية أخرى، يعرف العديد من الأوروبيين أن قارتنا صغيرة ومفتوحة، وقريبة من الصراعات التي تجتاح أوروبا الشرقية

والشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن الكثيرين يتبنون مقاربة براغماتية تستهدف احتواء الصراعات المحتملة والمحافظة على أساليب الحوار ـ والعلاقات الاقتصادية ـ متاحة ومتوفرة، إلا أن هناك أيضا عداء متجذر وحتى مواقف تعبر عن خوف رهابي من الأجانب ظهرت على السطح عند اندلاع «حرب الرسوم الكاريكاتورية» في أوائل عام 2006.

من الواضح أن الصراع على المضمون الإلحادي الكافر للرسوم الكاريكاتورية في صحيفة «يولاندز بوستن» يجب اعتباره عرضا جانبيا غريبا للصدام الأوسع الذي تؤدي فيه الولايات المتحدة الدور الرئيس. وحتى في هذه الحالة، يظهر أن البلدان الأوروبية لا يمكنها ادعاء «الحيادية والنزاهة» عندما يتعلق الأمر بمواجهة أسئلة تتصل بتعايش شعوب العالم معا.

في حين يعد هذا سؤالا صعبا للأوروبيين، فقد يكون أشد صعوبة للمواطنين الأمريكيين. فقد اعتادوا، أكثر من جيرانهم على هذا الطرف من الأطلسي، الوعود الانتصارية للاستثنائية المسيحانية، التي يحملها بعضهم إلى حدودها الرؤيوية القصوى، ويقرنها آخرون بصور البطولة الخارقة «للقوة العظمى» العالمية(32). وبالطبع، يدرك العديد من المواطنين أن عالما يقبع هناك ويعاني مشكلات هائلة وتحديات كبرى. فضلا على ذلك، هنالك الأرض ذاتها التي تظهر علامات متزايدة على القلق وعدم الاستقرار، كأنما استنفدت طاقاتها على التحمل أو تكاد. هنالك أيضا السياق المحير والمربك الذي يحاول الفصلان الباقيان من هذا الكتاب تقديم بعض الإجابات عنه.

هوامش

1- انظر:

Samuel Huntington, «The Clash of Civilizations,» Foreign Affairs 72, no. 3 (1993), 22ff.

توسعت المقالة وتحولت إلى كتاب بعنوان:

The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order (New York: Simon & Schuster, 1996).

2- Bernard Lewis, «The Roots of Muslim Rage,» The Atlantic Monthly, September 1990.

3- انظر:

Michael Hirsh, «Bernard Lewis Revisited,» Washington Monthly, November 2004: http:/www.washingtonmonthly.com/features/20040411/.hirsh.html(accessed Jan. 16, 2006).

4- انظر:

Ram Adhar Mall and Klaudius Gansczyk, «Interkulureller Humanismus als Hoffnung fur das 21. Jahrhundert,» Hoffnung Europa: Strategie des Miteinander (Hamburg: Global Marshall Initiative, 2006), pp. 63 - 79.

5- Tariq Ali, The Clash of Fundamentalisms: Crusades, Jihad and Modernity (London, New York: Verso, 2002).

6- Ali, Clash of Fundamentalisms, p. 3.

7- Thomas L. Friedman, New York Times, March 28, 1999, quoted by Tariq Ali, Clash of Fundamentalisms, pp. 260f.

للاطلاع على شرح أكمل للنزعة الانتصارية في الولايات المتحدة، انظر:

Thomas L. Friedman, The Lexus and the Olive Tree (New York: Farrar, Strauss & Giroux, 1999), where he repeats the same statement on page 373.

8- طور ليكوف مفهوم «أطر المعنى» حديثا في كتاب:

Don't Think of an Elephant (White River Junction, VT: Chelsea Green Publishing, 2004).

9- انظر:

Armstrong, The Battle for God (New York: Ballantine, 2001).

انظر أيضا:

Klaus Kienzler, Der religiose Fundamentalismus: Christentum, Judentum, Islam (Munchen: Buchergilde Lizenzausgabe, Beck'sche Verlagsbuchhandlung, 1996)

10- Mark A. Noll, A History of Christianity in the United States (Grand Rapids: Eerdmans, 1992), pp. 38182-.

11- Noll, History, pp. 383 - 84 .

12- Noll, History, pp. 44 5 - 46.

13- للاطلاع على مثال آخر، انظر:

The editorial «Fundamentali or Fundamental?»Brethren Revival Fellowship, BRF Witness, vol. 28, no. 6 (Nov./Dec. 1993):

www.brfwitness.org/Article/1993v28n6.htm (accessed Dec. 16, 2005).

14- في معرض توضيح كاينزلر لتعريف الأصولية التي تحمل قيمة سلبية قوية، يقتبس من المختص في العلوم السياسية توماس ماير، حيث يقول: «الأصولية حركة عنيدة في انعزاليتها ومعارضتها للعملية الحديثة من الانفتاح العام في التفكير والعمل وأشكال الحياة والمجتمعات، حيث تعد بأمان مطلق، ومواقف صلبة، وعلاقات يمكن الاعتماد عليها، وتوجه لا يدحض بواسطة الإدانة اللاعقلانية لجميع البدائل». انظر:

Kienzler, Fundamentalismus, p. 15.

15- انظر:

Kienzler, Fundamentalismus, pp. 60 - 63. The Two most important texts are the Decrete of the Holy See «Lamentabili» and the Papal Encyclical »Pascendi.»

للاطلاع على المصدر الأمريكي، انظر:

The Encyclopedia of Christianity, vol. J-O, Erwin Falbusch, ed. (Grand Rapids: Eerdmans, 2003), p. 610

16- من بين أبرز «ضحايا» هذه الأصولية مواطني وزملائي من اللاهوتيين: هانز كونغ ويوجين درورمان؛ وفي أمريكا اللاتينية، ليونارد بوف؛ وفي الولايات المتحدة، تشارلز كوران وماثيو فوكس (الذي طرد من الدومنيكان).

17- سوف أستشهد هنا بمثال معبر: اقترحت شبكة دولية مكونة من مؤسسات عديدة

(Global Contact Foundation, Global Marshall Plan Foundation, Club of Budapest, Club of Rome, Okosoziales Forum Europa,

Global Society Dialogue)

تشكيل «خطة مارشال العالمية». واعتمدت اقتراحاتها لإقامة «مشروع كوكبي» على الأهـداف الألفية للتنمية التي وضعتها الأمم المتحدة بغرض تشجيع «اقتصاد السوق الاقتصادي ــ الاجتماعي». أما العلماء المشاركون في هذه المؤسسات فلم يراودهم الشك في حقيقة أن مثل هذا المشروع ملح ويمكن إدارته ماليا. لكن تعرض لعراقيل مستمرة، إن لم يتوقف كليا، بسبب «المتشددين» من الاقتصاديين والسياسيين في العالم الذين تشبثوا باعتقاد أن نظام السوق الحر القائم حاليا يمكن/وسوف يحل مشكلات العالم. هذه «الأصولية الاقتصادية» هي التي تمنع تجريب واختبار مقاربات جديدة على المستوى العالمي. انظر:

Franz-Josef Radermacher, Global Marshall Plan: Ein Plaketary Contract fur eine Okosoziales Marketwirtschaft (Vienna: Okosoziales Forum Europa, 2004).

18- وحتى اقتراح أن هذه حقيقة سوف يعارضه من يعتقدون أن المشاعر النفسية اليقينية كافية لترسيخ حقيقة ما نعتقد به.

19- اتخذ الرئيس جورج بوش هذا الموقف حين تعرضت حرب العراق إلى انتقاد حاد. تقول رواية بوب ودوارد اعتمادا على هذه المقابلة: «هل طلب السيد بوش النصيحة من أبيه؟ سألت الرئيس عن ذلك. فأجاب: «لا»، ثم لجأ إلى موقف دفاعي. ثم قال شيئا أذهلني فعلا. فقد قال عن أبيه: 'إنه الأب الخطأ الذي ألجأ إليه طلبا للنصيحة. الأب الخطأ الذي أذهب إليه، فيما يتعلق باستمداد القوة». وأضاف بعدها: «هنالك أب أعلى ألجأ إليه».*

انظر:

«Woodward Shares War Secrets,» CBS News (online),

* تعالى الله عن ذلك الادعاء.

April 18, 2004: http://www.cbsnews.com/stories/2004/15/04/60minutes/main612067.shtml (accessed Jan. 18, 2006).

20- انظر:

Garry Gilmore, «Bush: U.S. Seeks Total Victory,» United States Department of Defense, News Information Service, Aug. 22, 2005: http://www.defenselink.mil/news/Aug200520050822/04 25_.html (accessed Jan. 16, 2006).

21- Carter, Our Endangered Values, pp. 30ff., 94ff.

22- انظر:

Thomas Frank, What's the Matter with Kansas? How Conservatives Won the Heart of America (New York: Metropolitan Books, 2004).

23- Robert Jay Lifton, The Protean Self: Human Resilience in an Age of Fragmentation New York: Basic Books, 1993).

24- Lifton, Protean Self, p. 1.

25- Lifton, Protean Self, p. 3.

26- Lifton, Protean Self, p. 202.

27- Lifton, Protean Self, p. 206.

28- Frank, Kansas, esp. chapter 2.

29- Frank, Kansas, p. 232.

30- انظر:

Thomas L. Friedman, «The Sand Wall,» New York Times, April 13, 2003, IV, 13.

31- Jurgen Habermas, The Future of Human Nature (Cambridge:

Polity Press, 2003); see esp. chapter 3, «Faith and Knowledge» (pp. 101 - 15), which was first published in Habermas's Glauben und Wissen (Frankfort/Main: Suhrkamp Verlag, 2001).

32- انظر:

Michael Hirsh, At War with Ourselves (Oxford/New York: Oxford University Press, 2005), p. 7 and elsewhere.

يصيب هيرش حين يقتفي أثر تعبير /uberpower/ في فلسفة فريدريك نيتشه دون إدراك إساءة استخدامه من قبل الفاشست الألمان. فقد تحدث نيتشه عن /Ubermensch/، الإنسان الذي تضعه قوته فوق بقية البشر. وعند تطبيق هذا النوع على القوة الأمريكية، يثبت هيرش جميع مخاوف أولئك الذين خضعوا لها.